على هامش مهرجان "المربد" الشعري

الشعر والحضارة

بقلم الدكتور محمد النويهي

« الشعر والحضارة » هـذا الشعار الذي اتخذ لمهرجان المربد الشعري ، يصعب عليّ أن أجد شعارا أجود منه تركيزا للاماني التي يجيش بها وطننا العربي في مرحلته الراهنة ، ولا أدق منه تعبيرا عن الوظيفة التي نريد لشعرنا المعاصر أن يقوم بها لتحقيق هذه الاماني .

وهذا المكان الذي اتخذ للمهرجان قرب مربد البصرة القديم في أرض العراق ، لست أعرف مكانا أقوى منه رمزا الى طبيعة المعركة التي نحتاج الى خوض غمارها لتحقيق تلك الاماني ، في هذه الفترة التي تستدبر فيها امتنا العربية عهدا تكافح في ازالة مخلفاته ، وتستشرف مستقبلا تجاهد في تدعيم مقوماته . ففي هذا المكان منذ ثلاثة عشر قرنا من الزمان تصادمت كتائب البداوة القبلية النازحة من شبه الجزيرة الصحراوية ، مع طلائع الحضارة الاسلامية التي بدأت تستقر في سواد العراق ، في معركة حامية ، سياسية واجتماعية ، وفكرية وفنية . وحين انجلى غبار المعركة كانت أرض العراق قد تم احتضانها للحضارة الجديدة التي جاء الاسلام يحث العرب عليها ، ويدفعهم اليها ، فاستقرت في العراق دعائمها ، واستوت على سوقها ، حتى استطاعت أن تقدم لتراث الانسانية الباقي واحدة من أنضج الحضارات التي شهدها التاريخ ، وأحفلها بثمار التقدم المادي ، والعمق الفكري ، والازدهار الفني .

لكن دار الزمن ، واذا بالامة العربية تنتكس عن حضارتها ، وترتد الى بداوتها ، في أكثر مجالاتها ، المادية والروحية ، السياسية والاجتماعية والثقافية ، على حين سبقتها في ميادين الحضارة المعاصرة امم أخرى . وها نحن أولاء ننظر في واقع أمتنا ، فماذا نجد ؟ نجد ـ بكل صراحة ـ اننا لم نستكمل أسباب الحضارة الجديدة في أي بلد عربي ، على تفاوت بين بلادنا في مدى اقترابها من هذا التحقيق ، ونجد اننا ما زلنا نحتفظ بقدر غير قليل من البداوة الجاهلية ، أيضا على تفاوت في القدر الذي نتشبث به من تلك البداوة . ونجد هذا القطر الذي ترعرعت فيه حضارتنا القديمة ، بين أشد بلادنا تشبثا بالبداوة السحيقة وتباطؤا في اللحاق بالحضارة الحديثة .

ونحن ـ بكل بساطة ـ نريد لامتنا العربية في متعدد أقطارها أن تتحضر بالحضارة الجديدة وأن تستتم هذه الحضارة ، على فهم واع حصيف بالعناصر النافعة منها ، وعزوف عن الجرائم الضارة فيها ، فان أغلب ما أخذناه من حضارة الغرب المعاصرة هو غناؤها التافه وبهرجها الطالح . نحن نريد هذا لان معركتنا الحقيقية مع العدو الذي يعيق انطلاقتنا ، ويتهدد مجرد بقائنا ، ليست معركة سياسية أو عسكرية ، بل هي اصطراع حضاري ، بكل ابعاد هذا المصطلح ، المادية والمعنوية .

وهذه حقيقة اليمة لا يزال الكثيرون منا غير قادرين على استجماع شجاعتهم لمواجهتها والاعتراف بها . لكني لن أطيل الحديث عنها ، فقد كتبت في التدليل عليها عددا من المقالات نشرتها مجلة « الآداب » البيروتية (١) . لكن دعنا الآن ننظر في الوظيفة التي نريد لشعرنا المعاصر أن يقوم بها في مواجهة تحدياتنا الراهنة . وربما يعنينا في استبصار هذه الوظيفة أن نتفهم الكنه الحقيقي لتلك المعركة التي دارت على هذه البقعة من الارض في القرن

(*) هذا المقال هو القسم الاول من الدراسة التي ألقاها الدكتور النويهي تعليقا على قصائد الامسية الشعرية الاولى من مهرجان المربد الشعري الذي عقد في البصرة (من ١ ـ ٥ نسان ١٩٧١) . ونعتذر عن عدم امكان نشر الدراسة كاملة لان ذلك يقتضينا نشر القصائد المنقودة التي سبق لمعظمها أن نشر من قبل .

(١) « والآن ... الى الثـورة الفكرية » ، فبراير ومارس ١٩٧٠ . و « نحو ثورة في الفكر الديني » ، مايو ١٩٧٠ .

الأول الهجري ، وبهذا نربط حاضرنا بماضينا ، ونستنبط من ذلك الماضي دروسا تهدينا في صراعنا الحاضر .

كان الاسلام قد جـــاء الى العرب وهم أخلاط من القبائل المتنافرة ، تمزقها العصبيات والاحن ، وتحيا في معظمها حياة بدوية تقوم على الضروري والحاجي . ولا شك ان الهم الاول للاسلام كان هدفا دينيا عفويا ، هـو أن يحررهم من عبادة الاوثان ويقنعهم بعبادة الاله الواحد الاحد الذي لا يرى . لكننـــا نخطىء اذا فهمنا الاسلام بالمعنى الضيق الذي كان مفهوما من كلمة « الديانة » حتى ذلك الوقت . فان الاسلام منذ بدئه كان يستهدف نظاما أكبر شمولا ، نستطيع أن نجمله في قولنا ان الاسلام أراد أن « يحضر » العرب ، أن ينقلهم من طور المجتمع البدوي الى طور أعلى وأكثر تقدما في مراتب الاجتماع البشري ، في كلا جانبي الروح والمادة . ولكي ينجح الاسلام فيهذا العمـــل كان عليه أن يجمـــع شملهم المتمزق في وحدة سياسية ، وكان عليه أن يغير الاساس المادي الذي قـــام عليه مجتمعهم البدوي ، وهـو الاساس الرعوي ، فيفتح لهم مجالا أكثر غنى اقتصاديا ، وكان عليـه أن يتيح لهم المقومات الثقافية التي يستكمـــل بها البنيان الحضاري الجديـــد .

وقد حقق الاسلام أهدافه الثلاثة هذه جميعا ، بـأن حارب عصبيتهم القبلية وعنجهيتهم البدوية ، وسعى في ضم شملهم في أمة واحدة تقوم على اساس « الايمان » ، أي على أساس فكري يحل محل القرابة الدموية ، الحقيقية أو المتخيلة ، التي تمثلوها في الانساب القبلية . وبأن نقل أعدادا عظيمة منهم من الصحراء التي لم تكن تصلح فـي ذلك الزمان الا للمعيشة القبلية الى الاقاليم الخصيبـــة المفتوحة . وأخيرا ، وليس آخرا ، بأن مزجهم مزجا قويا ، سلاليا وثقافيا ، بأهل تلك الاقاليم المفتوحة الذين كانـوا قد سبقوا عرب ذلك الزمـــان الى الحضارات العريقة . وحين مزج الاسلام العرب بغير العرب فقد أقام هذا المزج على مبدأ المساواة المطلقة ، لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى ، وأكرمهم عند الله أتقاهم ــ لا أعربهم .

لكن قوى البداوة الجاهلية شنت على الاسلام حربا هوجاء ، وكان الشعراء الجاهليون حملة لواء المعارضة ، الى درجة ترى آثارها في حملة القرآن عليهم . ولم تكن تلك الحملة بسبب احتقار الاسلام للشعر أو الفن بعامـة ورغبته في اقتلاعه من نفوس العرب كما ادعى عليه بعض أعدائه ، بل محاولة منه في تغيير النظام القبلي الذي كان أولئك الشعراء أقوى دعاته ، وأبلغهم في اذاعة قيمـــه ومفاهيمه . وحتى حين أسلم هؤلاء الشعراء اسما ، فقـد احتفظ كثير منهـــم في صميم نفوسهم بتلك المفاهيم والقيم ، وظلوا يتغنونها في طول القرن الاول الهجري .

وحين حل العرب النازحون من الصحراء في المشارف المطلة على العراق الخصيب ، كانت منازلهم في أول امرها مجرد حلل قبلية تسكنها قبائل لم تزل على درجة كبيرة من تفرقها وتباغضها . يروي الرواة القدامى ان أهـــل الكوفة كانوا في آخر عهـــد علي ــ كرم الله وجهه ــ قبائل . فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمر بمنازل قبيلة أخرى فينادي باسم قبيلته : يا للنخع ! أو : يا لكندة ! فيتألب عليه فتيان القبيلة التي مر بها فينادون : يا لتميم ! و : يا لربيعة ! ويقبلون الى ذلك الصـــائح فيضربونه ، فيمضي الى قبيلته فيستصرخها ، فتسل السيوف وتثور الفتنـــة .

أولئك قـــوم لم يدركوا غرض الاسلام حين جاء يحملهم مـــن باديتهم الصحراوية الى حضارة العـراق الخصيب . أولئك قوم آثروا أن يظلوا أعرابا جاهليين على أن يصيروا عربا مسلمين . وليس أدل على تغلغل الـروح القبلية فيهم من تلك القصة الاخرى التي يروونها عن رجل من الازد حج الى مكة وطاف بالبيت الحرام وهو يدعـو لابيه . فقيل له : ألا تدعو لامك ؟ قال : انها تميمية !

نحن نضحك الآن حين نقرأ أمثـــال تلك الاخبار . ولكن ... نحن العرب المعاصرين ، هل ارتقينا على مستوى أولئك البدو القبليين الى الدرجة التي تجيز لنا السخرية منهم ؟ ألا تزال أنحاء كثيرة مـــن وطننا العربي تمزقهـا النعرات القبلية الضارية ، والانقسامات الطائفية البغيضة ، والنزعات الاقليمية الضيقة ؟ او لا يزال وطننـا المعذب مفكك الاوصال شديد البعد عن الوحدة المبتغاة ؟

لقد شهـــد مربد البصرة كثيرا من تلك الاخبـــار المضحكة المبكية . شهد تراجز الرجاز ، يفخر العجليون منهم بربيعيتهـــم ، ويفخر السعديون منهم بتميميتهم ، ويتبارون جميعا في حشد الالفاظ الحوشية التي قل أن نجد لجفاوتها نظيرا في الشعر الجاهلي نفسه . بل كان انشادهم لاراجيزهم مباراة في الاغلاظ . يروى عن أحدهم انه كان اذا أنشد أراجيزه أزبد ووحش بثيابه أي رمـى بها . (وكم من شعرائنا العموديين لا يزالون يبالغون في الجأر بأصواتهم وعلك أشداقهم والاشاحة بأذرعهم حتـى ليخيل الينا انهم على وشك الازباد والتوحيش ، فيستجيب لهم كثيرون من المستمعين بالتصفيق الحاد والاستحسان والاستعادة !) .

كذلك شهد المربد ذا الرمة ينشد أشعاره التي تفوق أشعار الجاهليين أنفسهم امعانا فـي التشبث بالبداوة . وشهد الفرزدق وجريرا فـــي نقائضهما يؤججان نيران العصبيات ويحييان ذكرى الوتيرات الجاهلية وينهشـان الاعراض في بذاءة وافحاش ينـــدر ــ مرة أخرى ــ أن نقرأهما في دواوين الجاهليين .

ماذا كان يفعل هؤلاء في حقيقة أمرهم ؟ الحق ان البداوة ، ممثلة في أمثالهم ، كانت تفرغ جعبتها وتستنفد آخر طاقتها في معارضة قوى الاسلام المحضرة . لكـن

المربد شهد أيضا أشياء أخرى جاءت تؤذن بحلول عهد جديد . شهد جريرا نفسه يبلغ في نسيبه الافتتاحي درجة جديدة من الرقة والسيولة نرى فيها اثرا بينا لاسلوب القرآن العذب المتسلسل ، وتبشيرا بما سيلي من شعر يتعمد قائلوه نبذ ألفاظ البداوة المغلظة وتراكيبها الخشنة الوعرة ويبلغون بالاسلوب الشعري آفاقا متعالية من السهولة والعصرية . كما شهد الفرزدق نفسه يعيب على ذي الرمة انشغاله عن الاحداث السياسية العظيمة للعصر وانحباسه في البكاء على الدمن ونعت الابوال والبعر ووصف الناقة والديمومة . ثم شهد المربد غلاما من الموالي سيصير أمره الى أن يكون أول المحدثين ، وهو بشار بن برد . وفي البصرة ترعرع غلام آخر من الموالي قدر له أن يكون أعظم علم على الثورة الجديدة ، الاجتماعية والفنية معا ، وينعقد الاجماع على كونه زعيم الشعراء المحدثين ، وهو أبو نواس .

دروس المربد القديم : وظيفة شعرنا المعاصر

ولا حاجة بنا في هذه العجالة المختزلة الى أن نمضي في تتبع نمو الشعر الجديد الذي احتضنته العراق ونضج في حضارتها الزاهية . ولنقفز من تلك المعركة التجديدية الاولى التي شهدها تاريخ الشعر العربي الى المعركة الاخيرة التي دارت حول شعرنا الجديد المعاصر ، لنلاحظ انه كان للعراق ذلك السبق القديم في رعاية التجديد الشعري ، كذلك كان له السبق في عصرنا في هذه الحركة التي بدأت على أيدي نازك الملائكة ، وبدر شاكر السياب ، وعبدالوهاب البياتي (١) ، حين تتابع ثلاثتهم في أواخر الاربعينات وأوائل الخمسينات من قرننا هذا ، فقاموا في العراق الذي تحول اخصابه اجدابا ، وصار أكثر عمرانه خرابا ، والذي عاد فابتلعته العصبيات القبلية ، والاحن الطائفية ، والفرقة السلالية ـ ذلك العراق الذي كان يرزح تحت نير الاستعمار ، وأقدام الاقطاع والرأسمالية ، ويختنق في قبضة الرجعية الشاملة ، الدينية والاجتماعية والفكرية . قام ثلاثتهم فبدأوا الصيحة التي سرعان ما تجاوبتها أركان الوطن العربي ، حربا على تلك المخلفات الذميمة من قرون الانحلال ، ودعوة الى تحرر العرب من عهود الجهالة والجمود ، وحضا لهم على معايشة عصرهم ، واللحاق بركب الحضارة الجديدة التي تخلفوا عنها . وبعد معركة مريرة مع قوى الجمود والتحجر ، تعرفونها جميعا ، ولا تزالون تسمعون أصداءها ، تكللت حركة الشعراء الجدد بالنصر الوثيق ، فصار أغلب ما ينتج من الشعر في كافة أطراف الوطن العربي على الشكل الجديد الذي ابتكرته تلك الحركة الانطلاقية . فما الدروس والعبر التي نستقريها من كل ما ذكرنا من المامة بالتاريخ القديم والحديث ؟ وما الذي ننتظره من شعرنا المعاصر ، وما القيم التي يحق لنا أن نتطلبها فيه ، حتى ننظر على ضوئها فيما سمعنا من شعر هذا المساء ؟

نستطيع أن نجملها في قيم الوحدة ، والمعاصرة ، والحضارة . وما أظنني محتاجا بعدما قدمت من مقدمة تاريخية الى ان ابرهن على ضرورة هذه القيم ولزومها لتحقيق ما نصبو اليه من آمال لمستقبل الوطن العربي . لكن الذي أظننا نحتاج اليه هو تحذير من بضعة أخطاء ترتكب في تفسير هذه القيم وتطبيقها ، ورد على عدد من الشكوك التي تثار حولها . فنحن لا نعني بتحقيق تلك القيم حشد الشعارات والجأر بالنداءات في نظم يناظر النظم العمودي التقليدي في السطحية والتقرير الفج ، وليس له من الشعر الجديد سوى شكل فارغ . بل نريد المعاناة الشعرية الصادقة العميقة والتعبير الفني الصحيح بوسائل الفن الاصيلة ، التي تقوم على الايماء والتكثيف وتقلل من التقرير العاري . ونحن لا نلزم الشاعر بمذهب سياسي معين أو بموقف ايديولوجي محدد نفضله على غيره ، لا نلزمه مثلا بالتفاؤل ولا نحرم عليه التشاؤم ، فقد يكون التعبير الشعري عن التشاؤم وسيلة ناجعة في تطهير الشاعر نفسه وتطهير قرائه بالعملية التي تسمى « كاثارس » في الاصطلاح الفني . ونزيد فنقول اننا لا نلزمه بمعالجة القضايا السياسية الصريحة ، فقد تكون قصيدة غزلية صادقة تثير في النفس محبة الجمال أنجح في حمل العرب على التآخي وتلاقي قلوبهم على المحبة من خطبة سياسية منظومة تسمى شعرا . ونحن أيضا لا نقصر الشاعر على تناول الاهداف والمشاعر الجماعية ، بل نجيز له ، وننتظر منه ، أن يتناول المشكلات والهموم الفردية التي تهم الانسان العربي المعاصر من حيث كونه فردا يقف أمام ألغاز الكون الخالدة ويستبطن أعماق الذات الانسانية ، مثل القدر والاختيار ، والموت وما وراء الموت ، والشك والايمان ، والحب والانانية والتضحية . فان الانسان العربي المعاصر لم يعد يكتفي في كل تلك المعضلات بالمواقف الجاهزة والآراء المقررة المكررة ، وقد صار تفكيره فيها وشعوره بها الى درجة من العمق والتعقد والاضطراب والتناقض لا بد أن يعبر عنه في شعره سعيا وراء الحل والتوفيق والانسجام . فهو لذلك يحاول أن يجدد مفهوم علاقته بكل شيء ، علاقة الانسان بالاله ، وعلاقة المواطن بالوطن ، وعلاقة الفرد بالمجتمع ، وعلاقة الرجل بالمرأة .

هذا بدوره يقتضينا أن نتطلب في كل شاعر أصالة متميزة ، فلا يكون شعره مجرد اجترار وتكرار لما قاله غيره من الشعراء الجدد ، ومجموعة أصداء لما حققوه في

---

(١) أما ما يقال عن سبق آخرين ، ابو حديد وباكثير ولويس عوض وغيرهم ، فاننا اذا أنعمنا النظر فيه متجردين عن الاقليمية الضيقة ، لم نجد أكثر من ارهاصات بالتيار الجديد لم تستكمل الوعي بحقيقة كنهه ، بدليل انهم لم يمضوا فيه ، وليس من تيار جديد الا تسبقه ارهاصات . نقول هذا احقاقا للحقيقة التاريخية كما تبدو لنا بعد امعان النظر . وبعد ، فان ما يحققه شعراء أي قطر من أقطار العروبة هو مفخرة للوطن العربي كله .

جانبي المضمون والشكل . والاصالة في اعتقادي هي السمة التي لا تخطىء على مدى صدق شاعرية الشاعر .

فاذا كنا جادين في رغبتنا في أن يعمل شعرنا على دفع أمتنا العربية الى المعاصرة ، حتى تتنبه الى متطلبات الحضارة الجديدة ، فاننا يجب أن ندرك ان هذا لن يتحقق اذا ألزمنا الشاعر بالموافقة على كل الآراء الشائعة والمعتقدات الرائجة لدى أبناء وطنه . فقد تكون للشاعر رؤية أعمق وأبعد ـ بل هذا هو المنتظر منه ، والا فما معنى « شاعريته » ؟ وهذا يعطيه الحق في مخالفة تلك الآراء والمعتقدات ، وتغيير ما يرى انه يحتاج الى التغيير منها . فليس كل ما ورثناه عن قرون رجعيتنا وانحلالنا بالمقومات السليمة التي يمكن أن يقوم عليها فهمنا الجديد للعروبة . والكثير من المعطيات القديمة لم يعد مقبولا لدى ضميرنا الحديث ، ولا صالحا للحياة الكريمة العادلة التي نريدها لكل أفراد مجتمعنا ، ذكورا وأناثا . نحن اذن نجيز للشاعر أن ينقد وطنه ومجتمعه ومواطنيه ، بكل ما يريد من القوة ومن القسوة ، ما دام يقنعنا بأنه لم يصدر عن مجرد حقد أو شماتة او رغبة في التشهير ، بل هو صادر عن حب عميق مخلص لوطنه ورغبة أمينة جياشة في الارتفاع بأحوال مواطنيه المادية والمعنوية. فما أكثر ما يعج به وطننا ويكتظ به مواطنونا من النقائص والاخطاء والمخازي والجرائم المتبقية من عهود القهر والاذلال .

ان قضية المعاصرة تستلزم قضية التجديد الشعري، التجديد الشامل في كلا المضمون والشكل . تجديد العواطف والمواقف والافكار ، وتجديد القوالب اللغوية والانماط الايقاعية التي تؤديها . فان المضمون الجديد لا يمكن أن يؤديه الشكل القديم اداء صحيحا تاما . بل لا بد أن تستدعي جدة المضمون تجديد الشكل الذي يحمله الى درجة تزيد أو تنقص بحسب نصيب المضمون من الجدة . فليست العلاقة بين المضمون والشكل علاقة عارضة كعلاقة السائل بالاناء الذي يحتويه ، بل هي علاقة عضوية تامة التشابك وتبادل التأثير ، بحيث ان أقل تغيير يحدث في أحدهما لا بد أن ينتج عنه تغيير في الآخر . لكننا لن ننجح في تحقيق التجديد الضروري الا اذا آمنا بأن اللغة هي ملك لنا ، نحن أهلها الاحياء الذين يعيشون الآن ، فلنا أن نصرفها فيما نعتقد انه أكفل بقيامها بحاجاتنا المعاصرة وتطويعها لنهضتنا المتقدمة . ليس معنى هذا بالطبع أن نهمل تراثنا ، فما من أمة تستطيع أن تبني مستقبلا وطيدا على غير أساس متين من تراثها القومي . لكن معناه ان نكون اكبر جرأة على غربلة هذا التراث لنميز جيده وصالحه من رديئه وضاره ، فنحتفظ بالاول ونسعى دوما في احيائه ، ونبيد الثاني ونحطمه بلا رحمة ولا حنين جاهل .

لكن احياء التراث ليس معناه البقاء على قوالبه وأنماطه وأشكاله في صيغ متحجرة ، كما ان الاحتفاظ بنقاء اللغة لا يكون بتجميدها في قيود متصلبة ، فهذا هو الافناء عين الافناء . انما يكون الاحياء بالسماح للغة والتراث بالنمو المستمر والتجدد المتصل حتى يواكبا تطور الحياة الانسانية التي لا تكف عن التغيير . وهذا يعطي الشاعر حق التجربة المستمرة في بناء اللفظة وصياغة التركيب وتنويع الموسيقى وتطوير الشكل ، كما يعطيه حق الاستغلال الجديد لما يحفل به التراث من موضوعات وأخبار وقصص وأساطير ، بالاضافة الى حقه في تناول موضوعات وأفكار ومواقف ومشكلات تامة الجدة . وحق التجربة معناه الوحيد حق الخطأ . لسنا بطبيعة الحال مرغمين على أن نوافق الشاعر على كل النتائج التي تنتهي اليها تجربته . فان لنا الحق في التصويب والتخطئة ، لكن هذا الحق ينبغي الا يتجاوز ابدا حق النقد الموضوعي الى التجريح الشخصي والاتهام بالرغبة في هدم اللغة والقضاء على التراث وتقويض اركان القومية العربية .. الى آخر أمثال هذه من التهم التي تكال . فلننقد محاولات شعرائنا الجدد ما نشاء من نقد موضوعي خالص ، ولنترك للزمن أن يحكم أي هذه التجارب نافع يصلح للبقاء وأيها تافه لا فائدة فيه أو ضار يجب التخلص منه ، مطمئنين دائما الى صدق الآية الكريمة : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض » .

محمد النويهي

دار الآداب تقدم

ابراهيم ناجي

قصائد

اختارها وقدم لها

أحمد عبد المعطي حجازي

صدر حديثا ٢٠٠ ق . ل